

قداسة الشمس لدى المغاربة القدامى عبر التاريخ

Solar worship among the ancient Maghrebians

يوغطة حدادو*

جامعة خميس مليانة - الجزائر

y.haddaddou@univ-dbk.m.dz

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2022/03/10	2022/01/31	2021/12/30

الملخص:

تطرق المصادر الكلاسيكية الى طبيعة الديانات الموجودة بالمغرب القديم او ما سمي بالعالم الليبي، حيث اتضح انما لا تبتعد في مظاهرها عن التصور الديني عند شعوب البحر الأبيض المتوسط عبر التاريخ، غير ان بعض من الشواهد الدينية التي مارستها المجتمعات المغاربية تحمل في مكوناتها الأساسية، عناصر مستمدة من الإرث الافريقي التي ظهرت في مجملها من خلال أنواع العبادات والطقوس، فاذا كانت نفس هذه النصوص قد اشارت الى بعض من الصور الدينية التي توحى الى الاعتقاد الطوطمي، نستشف في مواضع أخرى وصفا آخر تمثل في تقديس الكواكب وعلى رأسها الشمس والقمر.

في هذا المجال، يظهر تقديس كوكب الشمس جليا في منطقة المغرب القديم وما يحمله من رموز ودلالات، استنبطها الانسان المغاربي من واقعه المعاش الذي لاحظ فيه تغيرا مستمرا وامام هذه الحالة أدرك عجزه، لكنه في نفس الوقت حاول الاستجابة لمخاوفه، فوضع جملة من المفاهيم والتصورات اعتقادا منه السيطرة على هذه الظواهر الطبيعية.

الكلمات المفتاحية: الشمس؛ المغرب القديم؛ هيرودت؛ لوجلاي؛ بعل حمون وساتورنس.

Abstract:

The classical sources have ben often the nature of Libyan religions, according to documents, do not delay from the others that forecast in the Mediterranean, as its structure seems reflect the common background of Africa through some worships and rituals.

If some passages of theses give them totemic worships as images, on the other hand others tend to describe some astral cult predominating in the ancient Maghreb.

It seems that the solar cult was significant across history, we have tried to reveal it through classical authors, archeological and epigraphic data.

Keywords: classical sources; Libyan religions; worships and rituals; astral cult; archeological and epigraphic data.

مقدمة:

أكد الآثاريون والمؤرخون وعلماء الانثروبولوجيا وحتى اللغويين عن وجود آثار لديانة مغربية قديمة بدأت منذ ان تشكلت صورة المجتمعات المغربية عبر الزمن ومهما بلغ مستواها الحضاري ضمن بيئاتها المتعددة، فان ثمة إدراكات حقيقية لهذا العالم المحيط بها، الذي تجلّى أساسا في استقراء معاني هذا الوجود وفهم أسرار وألغازه، مما أدى الى تأسيس جملة من المفاهيم تستجيب لأبسط تساؤلاتها المتعلقة بواقعها المباشر و فهم إشارات تلك الظواهر الطبيعية و من نتائج هذه الأحاسيس أدت الى نشوء فكرة – القداسة¹ – للتوفيق بين ما هو موجود و ما هو غير موجود، كما انبثقت منها جملة من الأطر تحولت في صيرورتها الى النواة الأولى لأشكال الديانات في المغرب القديم.

فتية و يمكن تلخيص المكونات الأساسية للديانة المغربية التي ذكرها لنا المؤرخون الإغريق و اللاتين من خلال نصوصهم، الى ثلاث مستويات من القداسة: تقديس المظاهر الطبيعية، في المستوى الثاني عبادة الحيوانات و حتى الإنسان اما المستوى الأخير تمثل في تقديس المجرات و الكواكب و في نفس السياق كذلك، ميز – م.بن عبو² – هو ايضا

نوعين من المعتقدات الدينية الموجودة بالمغرب القديم، إذ لخصها في طقوس ارتبطت ببعض المظاهر الطبيعية وطقوس أخرى ارتبطت بفكرة **الخصوبة** التي تحمل معاني الثراء والديمومة والقوة، هذه الرمزية تعبر عن الحياة وهي نقيضة الموت والفناء والاندثار في محيط، كان عنصر الماء يمثل الحياة، لهذا السبب نجد كوكب الشمس وما يمتاز به من خاصية الحرارة وانبعث الطاقة، من أولى الظواهر التي منح لها الإنسان الاهتمام البالغ.

من خلال هذه الصور المختزلة للحس الديني في بداياته، ندرك أهمية هذه العناصر المركبة للعالم الظاهري في كينونة تصورات الانسان المغاربي لمحيطه، فلما شعر بعدم قدرته في تفسير هذه **الأجرام السماوية** حاول الانتفاع بها في حاجياته اليومية³ فأوجد بعض ممارسات طقسية لإرضاء هذه العناصر ومع مرور الزمن ألهها وجسدها على شكل مشاهد وصور ترك لنا بعضا من مشاهدتها في عدة مناسبات، في هذا الإطار، ماذا كانت تمثل هذه الاجرام بالنسبة اليه؟ هل هي وليدة إرث محلي ام هي ناجمة من التسريبات والتفاعلات الحضارية بالمكان؟ كيف كانت مشاهد هذا النوع من التقديس؟

2. فكرة قداسة " الشمس " وأصولها عند المغاربة القدامى:

1.2. صورة الشمس عند الشعوب الافريقية:

يعتقد أن أصل تقديس الشمس في المنطقة المغاربية تعود الى أزمنة ساحقة في القارة الافريقية من خلال مشاهد (قرص الشمس) في الرسومات الصخرية التي تنتشر في العديد من المواقع الاثرية، بل تساءل العديد من الاثريين و المؤرخين عن سر هذا الانتشار في العالم القديم على غرار منطقة وادي النيل مع إله الشمس (راع) المصري الذي ذاع صيته في العالم المتوسطي وصنع له الانسان المصري صورة مثله كإله (التجديد والبعث)، كما نجد امثلة في حضارات (الازتيك والمايا) بالعالم الجديد، بحيث كانوا يقدمون له قربانين بشرية وليس ببعيد عنا، فقد شهد العالم الإفريقي هو أيضا ظاهرة تقديس الشمس مثلما نوه إليه الرحالة — بومان و وسترمان⁴، عندما أدركا أن كوكب الشمس هو الوجود الأعلى لدى قبائل —

الكونديغاز- المنتشرة بإفريقيا الشرقية، بحيث نجد من بين معتقداتهم أن: “كل شيء تملكه الشمس: الغابة و الحيوانات”.

هذه الخاصية نجدها في حضارات الصيادين وقد أخبرتنا مشاهد محطات النقوش الصخرية للأطلس الصحراوي والطاسيلي ناخر على نفس الفكرة في أشكالها المتناسقة، بحيث يكون مشهد الإنسان عاري البدن امامه حيوان ضخم و يقرب المشهدين شكل أدوات الصيد⁵ و هي العادة التي مارسها صيادو - الدوجون - اثناء عمليات الصيد إذ يجردون انفسهم من الملابس التي تمثل عالمهم الخارجي و المادي، حتى يتسنى لهم الغوص في العالم السحري و ما يلفت الانتباه أيضا، ان العديد من المشاهد الاثرية لهذه الحيوانات تحمل اشكالا دائرية فوق رؤوسها، ذهب الاعتقاد الى انها تمثل شكل الشمس الذي قال عنها - مرسيا -⁶: "التمثيل بقرص الشمس يحمل دلالة إلهية موجودة بكثرة في إفريقيا".

لقد اثبتتها المحطات الأثرية للأطلس الصحراوي والطاسيلي التي تزخر هي الأخرى على نفس المناظر، خاصة مع حيوانين رئيسيين في المنطقة ونخص بالذكر الثور العتيق-Pelorovis Antiquus- والكبش-Ovis Longipes⁷ - اللذان يمثلان لوحدهما مثلما اكده - ه. لوت -⁸ رمزين للقوة والخصوبة خاصة بالنسبة لكبش الأطلسي الصحراوي الذي كانت له اهمية في الديانة الليبية لأن رمزيته تعكس رمز المطر وخصوبة النبات.

فماهي هذه المعتقدات الدينية في مجملها، محاولة ابعاد الشر ونيل الخير والبركات وقد اشارت العديد من الدراسات الاثرية للفن الجداري على وجود علاقة بين تلك الصور للقرص و الذي يبدو انه رمزا للشمس و مشاهد الانسان و الحيوانات المختلفة طول السلاسل الجبلية الممتدة من غرب جبال الأطلس الأعلى إلى الشرق الجزائري الى غاية جبال الطاسيلي ناخر جنوبا، بحيث في اول وهلة كان الاعتقاد ان الإنسان قد قدس هذه الحيوانات من خلال اوصافها و مميزاتها (ما يعرف بالطوطمية) وهي تعكس المراحل الأولى

للديانة عند المجتمعات البدائية، إلا ان تسلسل وضعيات الإنسان و الحيوان معا في عدة مشاهد، غيرت وجهة نظرنا من مفهوم الطوطمية الى مفهوم قداسة لإله او لقوة طبيعية معينة على الأقل في هذا المستوى، خاصة اذا فسرنا من زاوية أخرى ان صور هذه الحيوانات تعبر عن مشاهد لتقديم القرابين و اذا سلمنا ان المنطقة الشاسعة التي تمثلها الصحراء الكبرى والممتدة من المحيط الى تخوم الغربية لوادي النيل، هي الرقعة التي تشخص بامتياز حقيقة هذا التقديس، خاصة عندما نتصفح النصوص الهيروغليفية المصرية التي تكشف بوضوح ان ارض “الليبيين” هي “ارض الظلمات” أي مكان “غروب الشمس” ولعل اسطورة الإله - رع - الذي يقوم برحلة يومية بواسطة قاربه الى المناطق الغربية لنهر النيل، كانت تمثل هي الاخرى غروب الشمس وانبعاث -رع- يبدأ من مشرقها.

3. قداسة الشمس في الفترات التاريخية:

1.3. الشواهد الاثرية والطوبونيمية:

أشار نص الكتاب الرابع للمؤرخ الإغريقي - هيرودوت -⁹ الى طبيعة الديانة في المجتمعات المغاربية او الليبية فقد ألهوا العناصر الفلكية على غرار -الشمس والقمر- وقدموا لهما قرابين وسماهم كذلك بعبدة الشمس والقمر كما امتدت رقعة انتشار هذه العبادة من مصر الى غاية جنوب بحيرة - تريتونيس - بتونس ونعتقد ان هذا الرأي صحيح عندما يؤكد الكاتب -ماكروب-¹⁰ وهو من مواليد مدينة -سيكا - النوميديّة وأحد أبناء المنطقة، لما ذكر ان الليبيين يزينون إلههم - امون - بقرون الكباش فيمثل لهم على شكل صورة رمزية هي -غروب الشمس- و نحن نعلم أيضا من بين أسماء الالهة المحلية عند مجتمع - الغوانش - الليبية بجزر الكناري، اسم -امان- الذي يطلق أيضا على الشمس واحتفظت كذلك الكثير من الكتابات النقشية لأسماء الاعلام الفينيقية-البونية في المغرب القديم لاسم إله -حمون او حمون بعل- الذي مثل هو الآخر الشمس، من خلال بعض صوره، اذن هذه الأسماء لم تظهر صدفة، بل لها جذور على الأقل افريقية- متوسطية.

ترسخت أيضا ظاهرة تقديس الشمس في الفترات القرطاجية، لكن هذه المرة نستشفها من خلال ظاهرة **الأونوماستيك** أي في الأسماء الطوبونيمية (الأماكن)، المتعلقة بالفضاء المغربي و قد أشار إليها - **سينزر**¹¹ نفسه في هامش مقاله بكل وضوح، لما استدل بنماذج مسكوكات بونية بها اسم لموقع "**مقام - شمس**" و أكدت كذلك الباحثة - **ك. بونيه**¹² أهمية الإله "شمس" بالمغرب القديم فنحن امام اسم طوبونيمي ديني محض، اتضح جليا مع نماذج مسكوكات مدينة ليكسوس / لعرايش - بالمغرب الأقصى، التي افصححت عن وجود لفظة "**مقام**" اضيفت لها اسم الإله "شمس"، لدليل صريح على ان اللفظة تحمل "**دلالة دينية**"، خاصة و ان - ليكوس او لكسوس - بها مذهب الإله - بعل ملقارت - الذي أشار اليه المؤرخ اللاتيني - **بلينيوس**¹³ - و لم يعتبر كذلك ملقارت فقط إله القرية أو المدينة في - بونتيون الآلهة الفينيقية - و انما مثل كذلك إله الخصوبة و الشمس و تجسدت صورته في المسكوكات بـ "عنقود الكروم" في واجهة.

كما استمرت أيضا هذه الظاهرة في العهد الروماني من خلال بعض الكتابات النقشية اللاتينية في مناطق كانت تابعة للنفوذ الروماني مثل مدينة باتنة، شرشال وسوق اهراس، بحيث نجدها في شكل العبارة التالية:

"SOLI DEO INVICTO" (بمعنى إله الشمس الذي لا يقهر)

السؤال الذي يجدر ان يطرح في هذا الملف، هل اسم DEO كان يقصد به الإله - ساتورنس الافريقي Saturne l'Africain - الذي كما نعلم من خلال أطروحة - **م. لوجلاي**¹⁴ ، ما هو إلا امتداد للإله القرطاجي بعل حمون وحسب راي هذا الأخير، ان فعل تقديس بعل حمون رغم تدهيم معبده بأعالي - سالمبو - سنة 146 ق.م اثر سقوط - قرت حدش -، قد استمر مع ساتورنوس الروماني بحيث يتضح جليا من خلال الكتابات النذرية المتناثرة التي عثرت في نفس المكان الذي رأى فيه - **م. لوجلاي**¹⁵ ، قيام معبدي بعل حمون و تانيت، بل شاع اسم هذا الإله بمواقع عديدة، إضافة الى موقع قرطاجة القديم،

ظهر كذلك بمدينة توغا (تونس) و في مواقع جزائرية (تبسة ومداوروش وعنابة)، هي أيضا على شكل كتابات نذرية :

موقع قرطاجة: لوجلاي، 1961: 19

SATURNO AUGUSTO SACRUM..URBA..OI..VOTUM

موقع قرطاجة: لوجلاي، 1961: 21

SATURNO DOMINO AUGUSTO SACRUM LUCIUS....

موقع قالمة: لوجلاي، 1961: 394

SATURNO AUGUSTO DEO SACRUM

فالملاحظ من خلال بعض نماذج لهذه الكتابات ورود ثلاث صفات أساسية في صورة الاله - ستورنس - وهي اوغسط (القديس)، دومينو (السيد) و ديو (الاله)، هذه الصفات تترجم بحق الرموز التي حملها الاله القرطاجي على الأقل في الصفة الثانية.

إضافة الى هذه الكتابات النذرية، تحمل بعض مشاهد النصب التذكارية الرومانية، رمز القرص متبوعا في بعض الأحيان شكل الهلال الذي يمثل الالهة الرومانية - كايليستيس - التي خلفت هي الأخرى الإلهة القرطاجية - تانيت - واحتفظت بصفاتها.

كما نجد في حالات أخرى تمثيل الهلال يعبر عن الإله ساتورنوس لما يكون محصورا بشكل منفرد مثلما هو الحال في مواقع قرطاجة وشرشال، ويرى -م. لوجلاي-¹⁶ في نفس الوقت، ان مشاهد القرص لا يمثل دوما الشمس وقد نجد بعض من النصوص البونية في العهد الروماني اشارت هي الأخرى الى ساتورنوس على شكل كتابة نذرية توضح فيه ان للإله ضريح، اخذت على شكل صيغ أشار إليها -تيكسيدور-¹⁷ كالتالي:

الكتابة بالبونوية: م ق م / ع ل م / م ط ر ح / س ت ر ن (اله؟)

الكتابة اللاتينية: mqm 'lm mtrh strny

المعنى التقريبي باللغة العربية: الضريح الأبدي لمقام سترن¹⁸

4. خاتمة:

يبدو من خلال النتائج التي خلصنا إليها في طرحنا لموضوع قداسة الشمس في الفضاء المغربي القديم، استمرارية هذا المعتقد من الناحية الزمنية في أشكاله المختلفة فإذا سلمنا برمزية قرص الشمس الممثل في العديد من المواقع الاثرية للرسومات الصخرية، فإننا نجد تأثيرات هذا المعتقد كذلك قد تجسدت هي الأخرى عبر صفات الألهة المحلية في الفترات القرطاجية و الرومانية، بنفس شكل القرص في الكثير من الشواهد الاثرية ولم تنحصر هذه الفكرة فقط في مستواها العقائدي وانما تسربت كذلك حتى في مخيلة الإرث الجماعي وترسخت في أشكالها الطوبونيمية مما يدل على قوة تأثير هذا المعتقد في نفوس مجتمعاتها، ألم يذكر العلامة —ابن خلدون، 1284 الهجري — ان هناك بربر وثنيين قدسوا الشمس و قدموا له قرايين في مجلده 6: "كتاب العبر¹⁹ ، مما بين اصالته وخصوصيته.

في تصورنا المبدئي، نرى ان تقديس كوكب الشمس له علاقة بالبيئة والمناخ، إذ انصبت كل المعطيات على ان المناطق التي ذكرت قد عرفت تحولا تاريخيا اثناء مرورها من نهاية الفترات الدافئة ودخولها عصر التصحر الذي بدأ على الأقل في الالفية الخامسة قبل الميلاد في شمال القارة الافريقية مما اعطى انطباعا للإثنولوجي —ج.مودوي— ان تغير المناخ كان سببا رئيسيا في بلورة هذه المعتقدات قائلا: "...المناخ يلعب دورا مميزا في انشاء الطقوس الدينية... تدهوره أدى الى توليد روح القداسة ارتبطت بالعناصر الطبيعية²⁰" و نقصد بالعناصر الطبيعية، الماء بالدرجة الأولى ثم الحيوان و اندثارها انعكس على حياة الانسان و ربط العلاقة السببية بين الثروة الطبيعية و عامل تأثير الشمس، حتى ان —لوجلاي— أشار الى الرمزية الأولى التي منحت الى ساتورنوس بانه كان الها خصيبا ادرج في الأنظمة الاجتماعية المزارعة.

من خلال هذه النظرة حاولنا تسليط الضوء على موضوع يكاد يخلو من الدراسات الأكاديمية المعمقة، ما عدا التي طرحت من طرف بعض مؤرخي القرن الماضي حسب توفر

أدوات مقارباتهم ويبدو الان ومع توفر المعطيات الجادة، تقديم نظرة جديدة لهذا الموضوع خاصة وان العالم يشهد نفس الظواهر الطبيعية من ارتفاع درجة الحرارة و تغير البيئة مما أدت هذه التحولات شعور سكان الأرض بمخاوف حياها و تساءلت عن مستقبلها ومن خلال هذا المعطى رأينا من الضروري إعادة استقراء نصوص المؤلفين الكلاسيكيين ودعمها بالمعطيات الاثرية وبالبيانات الكتابية القديمة حتى نفهم صيرورتها التاريخية و تصبح حقلا جاد للدراسات المستقبلية.

5. ملاحق:



الشكل رقم 1
يمثل الاله بعل حمون



الشكل رقم 2
يمثل الاله ستورنس

تعليق :

من خلال الصورتين يتبين لنا مدى التأثير العميق الذي يظهر من خلال تشابه بعض مميزات ستورنس وبعل حمون القرطاجي.

6. الهوامش:

¹ - بالنسبة لمفهوم القداسة، مصدره - قدس - يحمل عند الاثنوغرافيين-مفهومين، مفهوم روحي الذي يتمثل في القوة المنبعثة في أية ظاهرة طبيعية والتي شخّصت في - المانا-، اما مفهومه المادي فهو كل ما يتجسد من هذه القوة في اية مادة سواء كانت في شخص او حيوان او في نبات او في المجرات.

² - نظر في هذا المجال كتاب بن عبو الذي تطرق الى اهم المعتقدات الدينية المنتشرة في الفضاء المغاربي القديم في العهد الروماني:

Marcel Benabou. La Résistance Africaine à la Romanisation. La découverte, Paris, Nouvelle edition, 1978, pp.267-277.

³ - من خلال ترقب الاجرام السماوية، استطاع الانسان ان يحسب الزمن ويقر لها مواسم.

⁴ - لتعميم الفائدة في مجال الدراسات الاثنوغرافية للقارة الافريقية، راجع:

Hans Baumann et Diedrich Westermann. Les peuples et les civilisations de l'Afrique. Payot, Paris, 1949, p.48.

⁵ - يوغرطة حدادو. أهم مشاهد الحيوانات الطبيعية الكبرى في محطات النقوش الصخرية للأطلس الصحراوي وعلاقتها بالإنسان من الناحية الاجتماعية والعقائدية. رسالة ماجستير غير منشورة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بوزريعة، الجزائر، 2006، ص.90.

⁶ - Eliade Mircea. Traité d'histoire des religions. Payot, Paris, 1953, p.44.

⁷ - يوغرطة حدادو، نفسه، 2006، ص. 31 و 39.

⁸ - بينت العديد من المحطات النقوش الصخرية للأطلس الصحراوي وجود اشكال لحيوانات تحمل في اعلى رؤوسها أقراص مستديرة فسرت على انها رموز للشمس او للقمر، انظر الدراسة التي قام بها:

Henri Lhote. Les Gravures Rupestres du Sud -Oranais. CRAPE, Alger, 1970, p.117.

⁹ - Hérodote. Histoires. Traduction, P.H. Larcher. Maspero, Paris, 1980, : 188، IV، 1

¹⁰ - رغم قدم كتاب جزال الا ان بعض اطروحاته قائمة، خاصة في استشهاده لاهم المصادر الكلاسيكية، انظر:

Stephane Gsell. Histoire Ancienne de l'Afrique du nord. Hachette, Paris, 1913, p. 249.

¹¹ - اثبتت الدراسات الطوبونية عن علاقة تسميات الأماكن بالمظاهر الثقافية للشعوب ولان الاسم يعبر عن الخلفية الثقافية لأي مجتمع وعن معتقداته الدينية ومثال قداسة الشمس في المغرب القديم قد انعكس بشكل واضح في أسماء الأماكن، انظر:

Maurice Sznycer. Recherches sur les toponymes Phéniciens en Méditerranée Occidentale. Toponyme antique. Actes du colloque de Strasbourg, 12-14 juin 1975, Strasbourg, 1975, p.163-175

¹² - انظر كذلك:

Corinne Bonnet. Le dieu solaire Shamash dans le monde Punique. Dans SEL, 6, 1989, pp.97-115.

¹³ -Pline. Histoire naturelle. Livre V, 3-5,Tr. Ajasson De Grandsagne, Panckoucke, Paris, 1829.

¹⁴ -Marcel Leglay. Saturne Africain. Monuments. T.I, Afrique proconsulaire. Arts et métiers graphiques, Paris, 1961, p.12.

¹⁵ -Marcel Leglay. Ibid, p.12.

¹⁶ -Marcel Leglay. Saturne Africain. Histoire. De Boccard, Paris, 1966, pp.172-173.

¹⁷ -الدراسات الايغرافية او الكتابات المنقوشة هي الأخرى من اهم المصادر التي تمكننا في فهم تصور أصحابها باعتبار انها كتابات نصية قديمة معاصرة لزمن كتابتها، انظر نص تيكسيدور:

Javier Teixidor.1972. Bulletin d'épigraphie sémitique. In: Syria. Tome 49 fascicules 3-4, 1972. pp. 413-449

¹⁸ - يحمل مصطلح مقام عدة دلالات من بينها: الساحة أو المكان و مع توسيع مفهومه اصبح يشير الى مكان الضريح.

¹⁹ - عبد الرحمن بن خلدون. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، أ.خليل شحادة، المراجعة د. زكار سهيل دار الفكر، بيروت، 2001 م، ص.89 . أهمية دراسة كتاب بن خلدون تكمن في اللقاء أوجه المقارنة في الإرث الثقافي المغربي عبر الزمن ولان الكثير من أسس هذه المظاهر قد استمرت رغم اختلاف اشكالها.

²⁰ - Jacques Mauduit. Quarante mille ans d'art moderne. Plon, Paris, 1954, p.250.